السّرد العربيّ بحث في الموروث

أوّلا: مفهوم السّرد العربي عند القدامى:

يعتبر السّرد العربي أحد القضايا والظّواهر التي بدأت تستأثر باهتمام الباحثين والدّارسين العرب (...)، فالسّرد العربي قديم قدم الإنسان العربي، وأوّل النّصوص التي وصلتنا عن العرب دالّة على ذلك، مارس العربيّ السّرد والحكي، شأنه في ذلك شأن أيّ إنسان في أيّ مكان، بأشكال وصور متعدّدة وانتهى إلينا ممّا خلّفه العرب تراث مهمّ، لكن السّرد العربي كمفهوم جديد لم يتبلور بعد بالشّكل الملائم، ولم يتمّ الشّروع في استعماله إلاّ مؤخّرا وبصوّر شتّى[1].

وللسّرد العربي استعمالات قديمة وحديثة، مثل: (الأدب القصصي وأدب القصّة، والنّثر الفني، والقصّة عند العرب، والحكايات العربيّة)، وما شاكل هذا المفهوم، ومع ذلك إنّنا عندما نقول مفهوما، فإنّ هذا المفهوم الجديد نوظّفه ليكون مفهوما جامعا من جهة، وليكون دقيقا وشاملا من جهة ثانيّة[2]. وأنّ هذه الاستعمالات القديمة كانت مبثوثة في الدّراسات الأدبيّة.

حيث نجد في التّراث العربي أنّ الاهتمام كان يصب "على الشّعر باعتباره ديوان العرب، لكن ديوانا آخر ظلّ يزاحمه المكانة نفسها على الصّعيد

---

[1] ينظر: سعيد يقطين، السّرد العربي، مفاهيم وتجليّات، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون بيروت، دار الأمان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص55،57.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص،ن.

الواقعي، بل أنّنا نجده في أحيان عديدة يتبوّأ مكانة أسمى، سواء من حيث الإنتاج أو التّلقي، نشير هنا باقتضاب إلى المساجلات التي تمّت بصدد الشّعر والنّثر، والمفاضلات التي أثيرت بينهما منذ القرن الثّالث الهجري لكنّ المعرفة الأدبيّة القائمة على التّقليد الثّقافي السّائد لم توّله ما يستحقّ من العناية والاهتمام، فظلّ أبدا مجالا مشرعا للإبداع وإن بقيّ يقابل بالإهمال. وأحيانا بالازدراء، وهناك أدبيات كثيرة ومصادرات عديدة ونوادر تحكى حول القاص في مختلف المصنّفات العربية القديمة. وفي الواقع رغم كلّ هذه المصادرات والنوادر ظلّ السّرد فارضا نفسه، ومضمارا أصيلا أبدع فيه العربي، وعلى مدى عصور طويلة نصوصا في منتهى البراعة والحس والجمال، ولقد وصل العديد منها إلى مستوى العالميّة، وصار إنتاجا إنساني البعد والنّزعة، وعلى درجة ساميّة من الإبداع الإنساني الرفيع مثل: (ألف ليلة وليلة أو اللّيالي العربيّة كما تعرف بذلك عند الغرب)[1].

ويشير هنا "سعيد يقطين" إلى المؤلّفات والمصنّفات العربيّة التي تعدّ مصادر هامّة في السّرد، حيث يقول: «ومن أمثلة ذلك كتابين مشهورين في ثقافتنا العربيّة، أوّلهما "البيان والتّبيين" للجاحظ. لقد تمّ التّعامل مع هذا الكتاب بصورة خاصّة باعتباره مصدرا بلاغيّا أو نقديّا. لكن يمكن النّظر إليه بصفته خزانة سرديّة أيضا. وثاني الكتب "الأغاني" للأصفهاني إنّه ليس ديوانا للشّعر العربي كما يتم الاشتغال به عادة، ولكنّه علاوة

---

[1] ينظر: سعيد يقطين، السّرد العربي مفاهيم وتجليّات، ص61.

على ذلك ذخيرة للنّصوص السّرديّة واقعيّة كانت أو متخيّلة، وآن الأوان للنّظر في العديد من هذه الإنتاجات العربيّة باعتبار ما تستوعبه من نصوص سرديّة غنيّة وهامّة»[1].

وعلى هذا الأساس فقد عرف العرب القدامى مصنّفات تمسّ جوانب من السّرد العربي أشكال تدرج ضمن السّرد العربي تعرف بالأجناس النّثريّة كالرّسائل والتوقيعات والخطب والوصايا والمقامات والقصص وهذه الأخيرة التي عرفها العرب "منذ العصر الجاهلي بطابعها الشفهي، فقد كانوا يتسامرون ببطولاتهم في حروبهم وأيّامهم التي أصبحت "مادة محبوبة للمسامرة" إلى جانب رواية بعض الأساطير والخرافات عن الجنّ والشّياطين ما يتداولونه بينهم عن أحادث الهوى وأخبار وتفسير القرآن من خلال قصص الأنبياء مع الاستعانة ببعض القصص القصيرة والحكايات على اعتبار أنّها وسيلة من وسائل التّأثير في السّامعين»[2]. فمن القصص أيضا قصّة "حيّ ابن يقظان" لابن طفيل وعند ابن سينا وقصص (كليلة ودمنة) "لابن مقفع". و(رسالة الغفران) "للمعرّي" وكتاب (البخلاء) "للجاحظ"، و(المقامات) "لبديع الزّمان الهمذاني"، والسّير الشّعبيّة، مثل: سيرة عنترة، بني هلال، ظاهر بيبرس، سيف بن ذي يزن.

---

[1] سعيد يقطين، السّرد العربي مفاهيم وتجليّات، ص63،64.

[2] مصطفى البشير القط، مفهوم النّثر الفني وأجناسه في النّقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2010، ص126،127.

ثانيا- السّرد في التّراث العربي (نماذج):

1- القصّة العربيّة القديمة: عرف الحكي والقصص في التّراث العربي القديم فقد كان للعرب «القدامى قصص وخرافات وأساطير كالقصص التي يرويها ويحكها (النضر بن الحارث) عن الفرس، و(الشاهنامة) ليصرف بها الناس عن سماع القرآن (...)، وكقصة أمية ابن أبي الصلت وكقصص الوعاظ. وأصحاب السّير الذين يهدفون من وراءها العظمة والاعتبار، وفي ظلّ الإسلام ظهرت قصص الوعاظ وأصحاب السّير والتّاريخ، والحكايات، وكتابة أيّام العرب. وحروبهم. وأحاديث الخلفاء والفتوحات الإسلاميّة»[1].

كما وردت القصّة في القرآن الكريم كقصّة أهل الكهف، وقصّة "يوسف"، وقصّة "موسى"، وقصص الأمم السّابقة والمثل القرآني الذي يحمل عبر ومعاني، فالنّص «القرآني وردت فيه مرادفات عدّة تدّل على القصّة مثل: (القصّة، قصص، حدث، نبأ، مثل، أسطورة)، وفي اللّغة العربيّة وجدت مرادفات مثل: (سيرة، حكاية، رواية، خرافة)»[2].

---

[1] محمّد رمضان الجربي، الأدب المقارن، دار الهدى للطّباعة والنّشر والتّوزيع دم، ط1 2002، ص124.

[2] عبد المالك قجور، القصّة ودلالتها في رسالة الغفران وحيّ بن يقظان، مطابع الإخوة مدني، البليدة، الجزائر، ط1، 2010، ص26.

فلمصطلح القصّة مرادفات واستعمالات مختلفة في الأدب منها ما هو متعلّق بالجانب الشّفهي، وما هو متعلّق بالجانب المكتوب «وفي العصر العبّاسي اتّسع ميدان القصّة العربيّة وألفت فيها كتب كثيرة منها كتابا: (المحاسن والأضداد، والحيوان)" للجاحظ" و(العقد الفريد) "لابن عبد ربه"، و(الأغاني) "لأبي فرج الاصفهاني". وتعدّ هذه الكتب المصادر والجذور الأولى للقصّة العربيّة القديمة البسيطة التي تعدّ بحقّ المصدر الأول للقصّة العربيّة الحديثة بعد تطوّرها»[1]. والتي استفادت أيضا من المعايير الفنّية الغربيّة في بناءها السّردي، فكانت محطّ الدّراسات النّقديّة مثل الرّواية وهو ما توضّحه المحاضرات اللاّحقة، وبذلك «فقد اجتمع للعرب من أحوال حياتهم وأيّامهم تراث قصصي تداولته ألسنة الرّواة والقصّاصين إلى العهد الأموي والعباسي؛ حيث اهتمّ بعض الكتّاب لجمع ذلك الشتات المنثور والزّيادة عليه والتحوير فيه؛ وضخّم ذلك التّراث اختلاط العرب بالفرس والهند والرّوم. فاقتبسوا من قصصهم، ونقلوا عنهم وصهروا ما اقتبسوه ونقلوه في بوتقة عوائدهم ونظريّتهم. فكان من ذلك كلّه أدب قصصيّ واسع النّطاق. له مسحته الخاصّة وقيمته الحقيقيّة. ويقسّم الأدب القصصي إلى قسمين: القصص الموضوع والقصص المنقول»[2].

---

[1] عبد المالك قجور، القصّة ودلالتها في رسالة الغفران وحيّ بن يقظان، ص26.

[2] حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، منشورات المكتبة البوليسيّة، بيروت، لبنان، ط12 1987، ص724،725.

فالموضوع من إنتاج العرب وإبداعهم مثل قصّة (حيّ ابن يقظان) "لابن طفيل"، و(رسالة الغفران) "لأبي العلاء المعريّ"، والسيّر مثل: (سيرة عنترة، والزّير سالم). وأمّا المنقول فهو الدخيل على الأدب العربي فهو ما أخذه العرب من حضارة الهند، والفرس، واليونان وقاموا بترجمته واغترفوا منه ونقلوه مثل: (ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة).

2- قصص "ألف ليلة وليلة" أنموذجا:

إنّ من القصص في التّراث العربي والتي عرفت شهرة في الآداب الغربية من خلال التّرجمة، قصص (ألف ليلة وليلة) التي تعدّ من «القصص القديمة في الأدب العربي والذي كتب في عصور مختلفة. ومن المقطوع به أنّ المسلمين يعرفون هذا الكتاب قبل منتصف القرن العاشر الميلادي كما أنّ الكتاب مترجم عن الفارسيّة كما يقول المسعودي النّديم. وكان يُعرف في الفارسيّة باسم (هزارا فسانة) أي ألف خرافة. وقد تناول هذا الكتاب الأدباء بالدّراسة والشّرح والتّعليق. والتّصنيف في معناه وتأثّروا به ثم نزل إلى الأدب الشّعبي. فغيّر منه وزيد فيه»[1]، والعناصر الهنديّة موجودة في الكتاب تتمثل في عدّة أشياء منها[2] :

1- تداخل القصص في بعضها.

2- طريقة التّساؤل.

---

[1] محمد رمضان الجربي، الأدب المقارن، ص124.

[2] المرجع نفسه، ص،ن.

3- قصص الحيوان الهندي.

4- الإطار العام الذي تبدأ به ألف ليلة وليلة من خيّانة زوجة الملك (شاه زمان) وزوجة أخيه (شهريار) وعزم الأخير أنّ يقترن كلّ ليلة بفتاة يقتلها حين الصّباح. ثمّ زواج (شهريار بشهرزاد)، وحيلة "شهرزاد" بسرد تلك الحكايات حتّى لا يقتلها والأدب الهندي يشير إلى ذلك.

ويحتوي كتاب (ألف ليلة وليلة) مجموعة حكايات وأسمار مختلفة المواضيع والأساليب، والأغراض لا تتجاوز (264) حكاية، وقد أريد بعدد الألف التكثير لا التّحديد[1]. فالكتاب «عبارة عن بنيان على نمط قصر يحتوي على أجنحة: الجناح الأوّل يشتمل على نصوص من أصل فارسي وهندي والجناح الثّاني على روايات ترجع إلى عهد العبّاسيّين، أمّا الثّالث والأخير. فهو يصوّر لنا تاريخ مصر إبان عهد الفاطميّين (...) واتّفق كلّ المتخصّصين على هذا التّرتيب وبأنّ المؤلّف غير معروف. فلا يوجد عمل كهذا شارك في انتاجه عدّة مؤلّفين. علاوة على أنّ هؤلاء المؤلّفين ليسوا جماعة أشخاص وإنّما هم جماعة شعوب كاملة تمثّل أجيالا وأجيالا من الرّواة استطاعوا أن ينقلوا عبر القرون والأحقاب وعبر الأراضي والبحور هذا الانتاج الضّخم»[2].

تتميّز قصص (ألف ليلة وليلة) بسحر الحكي والجماليّة السّرديّة الكامنة في الجوانب العجائبيّة والغرائبيّة والوصف السّردي والخيال الفنّي في نسج

---

[1] ينظر: محمد رمضان الجربي، الأدب المقارن، ص124،125.

[2] ينظر: أمزياني فرحاني، من تقديم كتاب (ألف ليلة وليلة)، دار الأنيس، موفم للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ج1، 2005، ص1،2.

الحكايات التي تتداخل وتتسلسل، تجذب القارئ نحو التّمتع والتّخيل في رسم الأروقة والقصور والشّخصيّات الحكائيّة والعجائبيّة.

3- سيرة "بني هلال" (أنموذجا):

تعود "تغريبة بن هلال" في مقدّمتها إلى أحداث حصلت في بلاد "نجد" منذ زمن بعيد، وتحصر تاريخها في "سنة ستين" مع أربعمائة، كتبها في الدّيوان "زيد بن نافع"[1]، «وتبدو التّغريبة من أوّل وهلة على أنّها حكاية طويلة يدور موضوعها الكاشف حول رحلة الهلاليين التي انطلقت أحداثها من "نجد" وبلغت نهايتها في "تونس"، إلاّ أنّه إذا تمعّنا في بنيتها، نجد أنّها تتألّف من جزأين يتمثّل الأوّل في حكاية الصّراع بين الهلاليين والملوك قبل الاستقرار ويتعلّق الجزء الثّاني في الحكاية بالصّراع بين الهلاليين أنفسهم بعد الاستقرار في الغرب، وترتبط الحكايتان فيما بينهما ارتباطا عضويّا، وتضّم التغريبّة (ستّة وعشرين) قصّة وتبدو هذه القصص وكأنّها مستقلّة عن بعضها البعض إلاّ أنّها ذات علاقة وثيقة بمجموعها»[2].

إنّ وحدة التّغريبة في مجموعها مستوحاة من المناخ الخاص بديوان القبيلة، حيث إنّ الغالبيّة من الفرسان ينحدرون من الأصول النّبيلة، وسموّ

---

[1] ينظر: عبد الحميد بوسماحة، مكوّنات البنية الفنّية (رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التّاريخيّة، والاجتماعيّة والاقتصاديّة)، ج2، دار السّبيل، دط، الجزائر، 2008 ص18.

[2] المرجع نفسه، ص4 .

هؤلاء الأعيان والسّادات يمتاز عن مجرّد اتّخاذ القرار بالهجرة، وتنظيم السّلطة وإدارة تفاصيل الحرب بل يكشف بواسطة الشّعر والسّرد معا من أفكار ومعتقدات، وخوارق، وعادات، وأخلاقيّات، وأساليب العيش، ومهارات، ونظم قرابة، وقوى غيبيّة، وكلّ البنيات الاجتماعيّة التي تقوم عليها حياتهم، ويبرز التّجربة التّاريخية التي ترمي ليس إلى تقرير الحقيقة بل إلى مغزاها وتمجيد الماضي والأسلاف والإحساس العميق بالوجود، إنّ الانشقاق الثّنائي للتّغريبة يؤدّي بالضّرورة إلى ظهور صنف محدّد من الأبطال، حيث يحتلّ "أبو زيد "الصّدارة في الحكاية الأولى في حين يصبح "دياب"، و"خليفة الزناتي" البطلين الأساسين في الحكاية الثّانية، وتعبّر كلّ حكاية عن عالمين متعاكسين في الهويّة (الهلاليّون والملوك الأعاجم) في طبيعة السلّطة (النظام القبلي – الملكيّة) في الدّيانة (الإسلاميّة – الوثنية) في البناء الاجتماعي (الرعي وتربيّة الماشيّة – العمل الزّراعي)[1] .

[1] عبد الحميد بوسماحة، مكوّنات البنية الفنّية (رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التّاريخيّة، والاجتماعيّة والاقتصاديّة)، ص5.